والنموّ التصاعدي.. وهي بذلك كأنّها تنداح بعيداً عن بؤر المعاني، تُضيِّع بوصلتها، وتبري مسنَّاتها لتدعها تغرق في اللاّجدوى والغموض.

ـ تجربة القصيدة النّثريّة لغة تسعى لتقول أحياناً لاقولها، أو صمتها، ولتبني، أحياناً أخرى، نسقاً يتشكّل بفوضى النّسق، بالغربة، والقطع مع متلقٍّ ألف المنبريّة وانتظار المرسَلة الواضحة.

ـ تضمر القصيدة النّثريّة مفهوماً حداثيّاً، تعتبره هو الحداثة الحقيقيّة. يجد هذا المفهوم الحداثي معادلَه في لغة كتابيّة، أو في مقروء، ينتقل به إنسان المجتمعات العربيّة من كونه سامعاً، يتلقّى بإذنه، أي من كونه سلبيّاً في التّعامل مع النّصّ الغنائي «المنبري»، إلى قارئ نشط يستقبل، أو ينظر في مرآة.

هكذا يستمرّ الخلاف حول مفهوم الحداثة وشعريّة الشّعر، وسوف يستمرّ. فهو خلاف، كما أشرنا، قديم جديد يعود في وجه هامّ منه إلى طبيعة الحداثة نفسها، وإلى كون الشّعريّة قيمة جماليّة معرفيّة. واختلاف معاييرها هو اختلاف قائم في المواقع والرؤى، وفي العلاقة التّاريخيّة المتغيّرة بالعالم.

لكن، لئن كانت شعريّة الشّعر، أو حداثته، مسألة هامّة في الحوار الثقافي الأدبي، فإنَّ الأهمّ في هذا الحوار في واقعنا العربي المعاصر، هو مسألة الخطاب الثقافي نفسه في أقنعته الدينيّة والإتنية أوالعرقيّة الّتي تثير صراعاً دامياً داخل المجتمعات العربيّة فتفسح، بذلك، مجالاً للسياسة السلطويّة بأن تمارس قمعها؛ كما تسمح، في الوقت نفسه، لما يسمَّى بالنظام العالمي، بأن يتواطأ مع هذه السياسة على حساب حقّ الإنسان العربي في التصرُّف بموارده الطبيعيّة، وفي التمتُّع بخيرات أرضه وثمار تعبه.

إنَّ جوهر المسألة في الخطاب الثقافي العربي مازال يتعلَّق بالحرّيّة وما تعنيه من ارتكازٍ إلى العقل بدل الخرافة، وإلى المعرفة بدل الجهل، وإلى الفكر النقدي الحواري بدل الكبت والقمع. وهي مسألة في صميم الإبداع الأدبي وإن كان للأدب مجازه، أو رموزه وأساطيره لتوسّل الحرّيّة في التّعبير.

ولقد التزمت **الآداب** كمنبر ثقافي بهذه المسألة الجوهريّة، وبقيت الحرّيّة أساساً في منظورها للحداثة.. فتحيّة تقدير واعتزاز وصداقة لهذا المنبر ـ المؤسّسة، وأسرته رئيساً وأعضاء، يعملون بجدّيّة وإخلاص وتفانٍ من أجل ثقافة قوميّة عربيّة أصيلة منفتحة على الكوني.

اثنان وأربعون عاماً؟ يا إلهي، كم كبرنا!

طراد الكبيسي

أيُّها الأصدقاء...

أيُّها الأخ والصّديق العزيز سهيل إدريس...

يسعدني، وقد احتفلنا أواخر العام ١٩٧٧ باليوبيل الفضّي لـ **الآداب**، أن نحتفل اليوم بمرور اثنين وأربعين عاماً على صدورها.

هل قلت: اثنيْن وأربعين عاماً؟ يا إلّهي، كَم كَبرْنَا! وكم ضِعْنا وضَيَّعْنا من أحلام، وعانينا من آلام!

أين «الالتزام» وأين «إنَّ الأَدَبَ كان مسؤولاً؟» أين المشاريع النهضويّة العربيّة الاجتماعيّة والثقافيّة والسياسيّة؟ وأين تغيير العالم إلى ما هو أجمل وأكثر عدالة؟ أين التحرُّر والوحدة والحرّيّة؟ وأين الديمقراطيّة والاشتراكيّة؟ أين الكفاح المسلَّح والثورات الشعبية..؟ وأين فلسطين عربيّة؟ وأين «الثورة في الثورة» والرُّوح الأُمميّة؟ أين صلاح عبد الصّبور، وحسين مروّة، وخليل حاوي، والسيّاب، وكاظم جواد، وجورج حنّا، وسميرة عزّام، وميخائيل نعيمة... وعشرات الأسماء التي كنّا نلتقي بها أوّل كلّ شهر في **الآداب**؟

اثنان وأربعون عاماً، يا إلّهي، وكأنَّ كلَّ شيء باطلٌ وقبضُ ريح!

ـ ١ ـ

ليس صعباً، كما ليس سهلاً، الحديثُ عن مجلّة **الآداب** ودورها الوطني والقومي والإنساني في نشر الوعي الثقافي والنتاج الإبداعي، مُجسّداً هذا الدور ـ دون شكّ ـ بالسيِّد رئيس تحريرها الدكتور سهيل إدريس.

أقول: ليس صعباً الحديثُ عن **الآداب** لأنّني عرفتها وأدمتُ قراءتها ومتابعتها منذ العدد الثالث للسنة الأولى عام ١٩٥٣.

ورغم صعوبات الحصول عليها بالنسبة لي آنذاك ـ لأنّني لم أكن أقيم سنوات الخمسينات في بغداد، بل في مدينة لا يصلها من المطبوعات والدوريّات الثقافيّة إلاّ القليل ـ فإنّني ما كنت أعدم وسيلة للحصول عليها أو متابعتها بهذه الطريقة أو تلك.

بالطبع، كانت هناك بعض الانقطاعات، في بعض الفترات عن التّواصل مع **الآداب**، إمّا لسببٍ منعها من دخول العراق وإمّا لوجودي في أمكنة نائية لا يصلها أيُّ مطبوعٍ على الإطلاق، أو لأيّ سببٍ آخر. ولكن على العموم، كانت **الآداب**، دائماً، مركز اهتمامي، وأحد أهمّ مصادري الثقافيّة الرّئيسة، ونافذتي أو إحدى أهمّ النّوافذ التي لا غنى عنها للاطّلاع على العالم. كما غدت منذ أوائل السبعينات أحد أهمّ منابر النّشر التي أحرص ألاّ أغيب عنها طويلاً، حتّى في الظّروف القاهرة التي مرَّ بها العراق ولبنان، معاً.

وأقول، أيضاً، ليس سهلاً الحديث عن **الآداب**، لأن **الآداب** أفقٌ ثقافي ومعرفي وإبداعي شاسع تصعب الإحاطة به. فقد التقت على صفحاتها أجيالٌ تناسل بعضها عن بعض، وفي شتّى الاتّجاهات الفكريّة والأدبيّة والفنّيّة، ودارت على صفحاتها معارك وخصومات ـ رغم ما شاب بعضها من جنوح عن الهَمّ الثقافي إلى التجريح الشخصي أحياناً، إلاّ أنّها ظلّت عاكسة غنًى في التنوُّع، وشعوراً عالياً بالمسؤوليّة إزاء حرّيّة الفكر والتّعبير، ووعياً عميقاً في البحث عمّا هو أرفع حداثةً وأوقع أصالة. أذكر، على سبيل المثال، معارك الشّعر بين التّقليد والتّجديد، القوميّة والعالميّة، اللُّغة الفُصحى واللُّغة العامّيّة، الأدب للمجتمع والأدب للأدب، الحرّيّة والالتزام.. إلخ.

وأعترف أنَّ **الآداب** مع إصدارات الدّار الأخرى، وخاصّة في مرحلة الاهتمام بالوجوديّة، وبالذّات من خلال كتابات سارتر، ودو بوفوار، وكامو، وآخرين، وموقفهم من ثورة الجزائر التحرُّريّة، جرَّتني إلى الوجوديّة: أدباً وفلسفة.. ولم أتحرَّر من هذه الوجوديّة إلاّ بعد أنْ تحرّرت من بيئة كنّا نصفها بـ «الجحيم هم الآخرون» لأدخل في بيئة خُطَّ على مدخلها: «أيُّها الدّاخلون اتركوا وراءكم كلّ أمل..»!

طبعاً، كان ينبغي أن تمرَّ فترةٌ لأكتشف أنّي لم أكن وجوديّاً، بل «أتواجد!» كما لم يكن أيٌّ من **الحيّ اللاتيني** أو **الآداب** أو سهيل إدريس من الدُّعاة الوجوديّين!، بل كان مسؤولاً وملتزماً أمام نفسه والآخرين: ثقافيّاً، وقوميّاً، وإنسانيّاً. وليس أدلّ على هذا من إدانة **الآداب** القويّة لموقف سارتر الشّائن من الصّراع العربي ـ الصهيوني، بعد زيارته مصر وإسرائيل. كما نجد دائماً على صفحات **الآداب**: القومي، والماركسي، الملتزم واللاملتزم (عقائديّاً)، المُجدِّد الثوري والمحافظ.. إلخ.

ولكن هذا لا يعني أنَّ **الآداب** كانت محايدة على الإطلاق، فهي «تحمل رسالة قوميّة مُثلى» وتطمح للمشاركة، بواسطة كتّابها وقرّائها، في «العمل القومي العظيم»، على أن يكون «مفهوم الأدب القومي من السّعة والشُّمول بحيث يتّصل اتّصالاً مباشراً بالأدب الإنساني العامّ». فقد ناصرت **الآدَبَ** الجديد: شعراً وقصّةً وبحثاً ونقداً ورؤية، دون أن تغلق الباب بوجه السّائد، وناصرت الاتّجاهاتِ القوميّةَ والوحدويّة ضدّ التّجزيئيّة والشّعوبيّة، والإنسانيّة ضدّ التّعصُّبيّة، والعربيّةَ الفُصحى ضدّ العامّيّة واللاّتينيّة، والأدب في خدمة المجتمع ضدّ التّغريب والاستلاب، والاشتراكيّة ضدّ الرأسماليّة، وعدم الانحياز ضدّ الانحياز. وناصرت الحركات الثوريّة العربيّة والعالم ثالثيّة خاصّة ضدّ الرجعيّة المنحازة إلى الاستعمار والامبرياليّة والصهيونيّة.

ولقد ظلّت **الآداب** مخلصة أمينة لرسالتها وأهدافها كما حَدَّدتها افتتاحيّةُ رئيس التّحرير الدكتور سهيل إدريس في العدد الأوّل ـ كانون الثاني ـ ١٩٥٣، وهي في الإطار العام:

أوّلاً: أنْ لا يكون الأَدَبُ منعزلاً عن المجتمع الذي يعيش فيه، «فإنَّ الأدب الذي تدعو إليه المجلّة وتشجّعه هو أدب الالتزام الذي ينبع من المجتمع العربي ويصبُّ فيه».

ثانياً: النّهوض بالحركة الأدبيّة، سواء بالعمل على إخراج الأقلام المبدعة من صمتها وعزلتها، أو من خلال احتضان الأقلام الجديدة وتشجيعها على الكتابة، أو من خلال إحياء «الحركة الأدبيّة الهامدة في البلاد العربيّة» عن طريق إثارة «القضايا الفكريّة، وفسح المجال واسعاً للمناقشات والمطارحات والمعارك القَلَميّة».

ثالثاً: تقديم الأدب ـ النموذج بحيث يكون الذي تنشره **الآداب** «جديراً بأن يُعطي الأجنبي فكرةً صحيحة عن الأدب العربي الحديث ومشاركته في الحركة الأدبيّة العالميّة».

وهنا ينبغي أن نعترف مع السيِّدة عائدة مطرجي إدريس أنَّ مجرَّد صمود **الآداب** واستمرارها في الصُّدور لأكثر من ٤٢

عاماً، يُعَدُّ «معجزةً» بحدِّ ذاته... قياساً إلى الصُّعوبات والتّحدِّيات التي تواجهها المجلّات الأدبيّة والثقافيّة العربيّة خاصّة، والعالمثالثيّة عامّةً، سواء على صعيد الممنوعات الرقابيّة التي تفرضها السلطات السياسيّة العربيّة، أو على صعيد الإغراءات التي تقدِّمها هذه السلطات لاحتوائها وحرفها عن مسارها المستقلّ، أو على صعيد الالتزام بالرِّسالة والهدف المُعلن والمَوْثِق الذي قطعته على نفسها أمام الكتّاب والقرّاء. وهنا تأتي **الآداب** في الطليعة النُّدْرَة من المجلّات التي صمدت خلال النّصف الثاني من قرننا العربي المليء بالهزائم والانكسارات والخيانات والمحرّمات.. وممّا لاشكّ فيه أنَّ العلاقةَ العاطفيّةَ والرّابطةَ العضويّة بين المجلّة ورئيس تحريرها، وبينهما وبين القارئ والكاتب، هي القوّة السّحريّة وراء هذا الإصرار البطولي على البقاء، والقدرة على مواصلة الخَلْق والمحافظة على الاستقلال، رغم كلّ عوامل الذبول والموت والإحباط والإغواء التي تحيط بها من كلِّ جانب!

ـ ٢ ـ

لستُ أدري على وجه اليقين متى بدأتُ النَّشرَ في **الآداب**. في الخمسينات لم أنشر ولم أُجرِّب ذلك، علماً أنّي نشرت في **الأديب** شقيقتها الأقدم سِنّاً منذ ١٩٥٦. في الستّينات كذلك لم أنشر، علماً أنّي كنت أنشر في أغلب المجلّات الثقافيّة في العراق وفي بعض الأقطار العربيّة. وعلى وجه التّقريب أوّل نشرٍ لي في **الآداب** كان في أوائل السبعينات. ومنذ ذلك التّاريخ لم أنقطع عن **الآداب** إلاّ لظروفٍ قاهرة مانعة للتواصل. ومنذ بدأتُ الكتابة في **الآداب** أكرمني أستاذي وأخي وصديقي الدكتور سهيل إدريس، كما أكرمتني **الآداب**، فلم ترفض لي مادّة أرسلتها، ولا اقتطع رئيسُ التحرير شيئاً ممّا كتبته. ولست أدري ما إذا كان هذا من فضيلة حرّيّة التّعبير واحترام **الآداب** لكتّابها، أم لِعَيْبٍ فيَّ، فلم أكن مشاكساً وكنتُ مؤمناً بالله، والوطن، والأمر الواقع، وبحكمة القائل «انْجُ سعد فقد هلك سعيد»!

لكن الشيء الأكيد، وحسب علمي ـ وفوق كلِّ ذي علم عليم! ـ أنَّ **الآداب** منذ ابتداء مسيرتها، أدركت مسؤوليّتها وتحمَّلت متاعبها واتّخذت قرارها: «المنْعَ» ولا حجب مادّة جيِّدة لشاعر أو كاتب!. وأعتقد أنَّ جميع القرّاء والكتّاب يعرفون هذا ويشهدون بأنَّ **الآداب** وصاحبها كانا صاحبيْ موقف لا يُسَاوَمُ عليه... وفي مقدّمتهم الكتّاب الذين مُنِعت **الآدابُ** من دخول بلدانهم بسبب نشرها مادّة لهم.

وأشهد مع الدكتور قسطنطين زريق [«نحو ثقافة عربيّة أفضل»، **الآداب**، العدد الرّابع، نيسان ١٩٥٤] أنَّ **الآدابَ** حَفِظَتْ للمثقّفين العرب كرامتهم وكرامةَ الثّقافة التي يُمثِّلونها.. أيّام كانَ مبْلغُ جهدهم أن يُخلصوا لها، فلا تكون لهم سبيلاً لتجارة، أو أداة لجرِّ مغنم، أو وسيلة لكسب نفوذ.

وقد واصلت **الآداب** هذا النهجَ طوال مسيرتها، إزاء الكاتب العربي، وماتزال في خطِّ الدّفاع الأوّل: الوطني والقومي للثقافة العربيّة وفي احتضان المواهب الشّابّة، وتحمُّل مسؤوليّة الدفاع عن حرّيّة الفكر والأدب والأدباء حيثما كانوا.

ومع أنَّ غالبيّةً عظمى من الكتّاب العرب غيَّروا ما بأنفسهم وارتضوا أنْ يتحوَّلوا إلى ما يُشبه «ممسحة العتبة» للدّاخل والخارج من أصحاب السلطة والتجارة والنفوذ، فإنَّ **الآداب** لم تتخلَّ عن مسؤوليّتها وموقفها حتّى إزاء أمثال هؤلاء عندما تدعسهم جزمُ الخارجين والجُدد الدّاخلين!

* * *

أينبغي أن أقول ماذا علَّمتني **الآداب**؟ وهل أستطيع أن أحيط بذلك عِلْماً؟

سأقول باختصار بعضاً من ذلك:

١ ـ تَعَرَّفتُ على أسماءٍ لامعةٍ كثيرة، كبيرة وناشئة، عربيّة وأعجميّة، يصعب ويطول حصرها.

٢ ـ عاونتني **الآداب** في أن أواكب حركة الثقافة والإبداع في الوطن العربي والعالم، بسُبلها المتعدِّدة المعروفة.

٣ ـ وعلَّمتني ألاَّ أُقطِّعَ أوصال الأزمنة الثقافيّة مهما بلغ بنا الحماس للجديد والمعاصر، وأن أجتهد دائماً للإمساك بخطِّ التّتابع. فحركة الزمن لا تقف، والجديد لا يُصطنع لأنَّه ينبع من ضمير الأمّة وحاجتها، ويعبِّر عن عبقريّتها، أو عقليّتها.

٤ ـ وعلَّمتني القراءة الصحيحةَ، والكتابة الموضوعيّة. قد نختصم مثلما اختصَمتْ في معارك ثقافيّة وأدبيّة. ولكنْ يظلُّ سبيل الوصول إلى الحقيقة هو الجهد البحثي، والنهج الموضوعي، واحترام الرأي الآخر، والبُعد ـ جهد الإمكان ـ

عن الجانب الشخصي، والانصراف كلّياً إلى الهَمِّ الثقافي والإبداعي.

٥ ـ وعرَّفتني **الآداب** على كثيرٍ من طرق النَّقد ومذاهبه، والفرق بين حيازة النظريّة وتطبيقها، سواء من خلال: «قرأتُ العدد الماضي..» أو من خلال الدراسات والمباحث النقديّة التي تنشرها حول هذا النَّصّ أو ذاك.. إلخ.

٦ ـ وعلَّمتني **الآداب** ـ يوم أُتيح لنا أن نَتحمَّل مسؤوليّةَ مجلاّتٍ ثقافيّة وأدبيّة ـ أنْ نحتضن الطاقات الناشئة الجديدة؛ فهي النسغُ الصّاعدُ من جذور الأشجار الحكيمة.

٧ ـ ومن **الآداب** تعلَّمتُ معنى حرّيّة الفكر والتّعبير، ومسؤوليّة هذه الحرّيّة وثقلها، وخاصّة في عالمنا العربي ـ الثالثي! فأنْ تقود **الآداب** معارك من أجل هذه الحرّيّة: حرّيّة شعبٍ، أو منظّمةٍ. أو فردٍ.. ليس أمراً هيِّناً ـ أي مجرَّد كلام يُقال! ـ بل يعني هذا أن تتعرَّض للمنع والتّشهير، وأن تخوض حرب «داحس والغبراء» مع القبائل وملوك الطوائف العربيّة... وهو ما حصل لها أكثر من مرّة!

ولقد كانت **الآداب** من الشَّجاعة والالتزام بخطِّها القومي التحرُّري، أن كانت ملاذاً للّذين حُجِبَتْ عنهم منابرُ أقطارهم الثقافيّة، كلّيّا أو جزئيّاً.

أيُّها الأصدقاء...

يحزُّ في النَّفس، اليوم، أن نجد أنفسنا مضطرّين للحديث بحنين وأسًى عن ماضٍ زاهرٍ غابر من حرّيّة الفكر والكتابة والإبداع.. عن ثقافةٍ حقيقيّةٍ وعقولٍ غير مُصادرة، وإنسانٍ لا يتوسَّل بالكتابة لتوفير لقمة العيش.. ولكن.. لا رأي للحمول إلاَّ ركُوبها!

عزيزي الدكتور سهيل إدريس...

لقد جاهدتَ في زمنٍ صعب، لكنّه قياساً لزمننا اليوم، في عِداد «الفراديس المفقودة»!

أخي وحبيبي سهيل إدريس...

أُحيِّيك، فقد كنتَ دائماً سَهلَ المُخالَقةِ ـ إذا لم تُظْلَم، طبعاً! ـ ومقاتلاً نبيلاً ما أَخطَأَهُ الشَّرفُ في معارك الثقافة والحرّيّة وكرامة الأمّة.

وأَرْقيك والآدابَ من شرِّ النَّفّاثين المجذومينَ فكراً وخَلْقاً وخُلُقاً!

بغداد ٥/ ٧/ ١٩٩٤

رقرقة الأحلام الملحيّة

إدوار الخرّاط

رواية

دار الآداب

بدريّة البشر

مساء الأربعاء

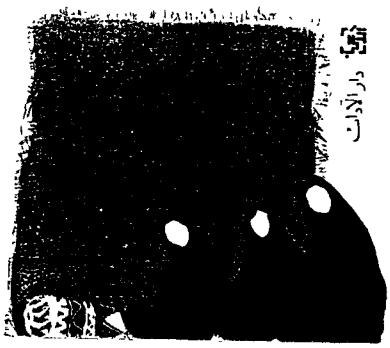

دار الآداب

دار الآداب